

والإطراء الأكثر انصافاً والأكثر كرمًا : غير أنه يولي شكسبير المنزلة الأعلى على الإطلاق بين الشعراء، على كل أساس آخر سواء ذلك الأساس الذي يقوم على جمال الإيقاع والأسلوب .

والنقطة الأساسية عندي هي أننا ينبغي ألا ننظر الى هذه البلاد في الإحساس، التي تعدّ غريبة جداً بالقياس إلينا ، على أنها عيب شخصي في جونسون يضعف مكانته بين النقاد، فإن ما ينقصه إنما هو حسّ تاريخي لم يكن بعد قد آن أو أن ظهوره . وههنا يوجد شيء ما يستطيع جونسون أن يعلمنا إياه : وذلك أننا اذا كنا وصلنا الى هذا الحس التاريخي بأنفسنا فإن سبيلنا الوحيد هو تطويره الى مدى أبعد . ومن الطرق التي نستطيع أن نطوره بها في أنفسنا فهمّ للناقد الذي يتجلى فيه ذلك الحس ، وإنما يقصّر جونسون في فهم الإيقاع والأسلوب اللذين كانا قد يمين بالقياس اليه، لاعتق ناقص في الحساسية، بل بفعل التخصص في الحساسية . ولو كان القرن الثامن عشر قد أعجب بشعر العصور السابقة، بالطريقة التي نستطيع بها أن نعجب به ، لكانت النتيجة خليقة أن تكون عماء شاملاً، ولما كان هناك القرن الثامن عشر كما نعرفه ، ولما توفرت لذلك العصر القناعة الضرورية للوصول بأنواع الشعر التي أكملها بالفعل ، إلى الكمال، لقد كان صمم أذن جونسون تجاه بعض أنواع الإيقاع الشرط الضروري لحدة إحساسه بجمال لفظي من نوع آخر. وكانت لجونسون أذن مرهفة، شأن أي امرئ سواه ضمن رهطه ، وضمن عصره، وحين يلفت الانتباه ، مرة بعد مرة ، الى ألوان من الجمال، أو الى العيوب في عمل الشعراء الذين يكتب عنهم ، فلا بد لنا أن نقرّ أنه على حق، وأنه يشير الى شيء ربما لم نلاحظه بصورة مستقلة، وربما ثبت أن مقياسه صحيحة بصورة ثابتة .

وهناك نظرة أخرى، في مشكلة الفرق بين حساسيات قرن وآخر، جدية بالذكري، وهذه هي مشكلة التوكيد على الصوت أو المعنى ، واعتقد أن في وسعنا أن نتفق على أن أعظم الشعر يمرّ بأقصى اختبار في كلا الموضوعين ، غير أن هناك